ISSN: 1543-2335
E-ISSN: 2012-3299
مجلة الفكر المتوسطي للبحوث والدراسات في حوار الديانات والحضارات
مجلد: 07 عدد: 02 سبتمبر 2018
العنوان: تقسيم الفضاء السكني بين الجنسين في العائلة التقليدية
ص63 . ص76

تقسيم الفضاء السكني
بين الجنسين في العائلة التقليدية

الطالب: براهم عصام
جامعة تلمسان
brahamissam@yahoo.fr

تاريخ الارسال : 2018-02-04 / تاريخ القبول: 2018-07-19 / تاريخ النشر 2018-09-15

Abstract

In this article, we seek to explore the most important cultural and social connotations of the concept of the house traditional in the social and cultural imagination, highlight the manifestations of the relationship between the sexes in the traditional residential space, and try to reveal the implicit logic of the cultural thinking on which the division of space between the sexes was built.

key words: Family traditional ; the house; division of space; division between the sexes;

ملخص

نسعى من خلال هذا المقال إلى استنطاق أهم الدلالات الثقافية والاجتماعية لمفهوم المسكن العائلي في المخيال الاجتماعي والثقافي، وإبراز تجليات العلاقة بين الجنسين في الفضاء السكني التقليدي، كما سنحاول الكشف عن المنطق الضمني للتفكير الثقافي الذي أنبنى عليه تقسيم الفضاء بين الجنسين في العائلة التقليدية الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: المسكن ; العائلة التقليدية; تقسيم الفضاء; الفصل بين الجنسين.

مقدمة

يشكل المسكن فضاء جغرافيا وهندسيا متميزا بتميز الإنسان ثقافيا واجتماعيا، فوجود الإنسان نفسه أرتبط بالمسكن الذي بناه تلبية لرغباته المعاشية وممارسة تفاصيل حياته اليومية. إلا أن المسكن التقليدي كفضاء عائلي ارتبط في المخيال الاجتماعي والثقافي بالمرأة كمكان مغلق وسري وحميمي، فضاء للأنوثة، وعالم النساء، وما خارجه هو فضاء للذكورة، وعالم الرجال: الشارع، المصنع، المسجد، المقهى، الحقول والسوق. هذا الفصل بين فضاء عام للرجل وفضاء خاص للمرأة، شكل صيغة للعلاقات الاجتماعية في المجتمع التقليدي، وهو فصل يمكن اعتباره آلية ذكورية تنم عن إرادة التحكم والسيطرة على النساء، من

خلال حصر المرأة والحد من حريتها وتقيد وظائفها داخل المسكن، وبذلك إيجاد تعريف ضمني للمرأة وهو الزوجة والأم.

سنحاول في هذا المقال الإجابة عن مجموعة أسئلة: ما هو مفهوم المسكن العائلي في المخيال الاجتماعي والثقافي؟ وكيف تمظهرت العلاقة بين الجنسين في الفضاء السكني التقليدي ؟ وما هي الآلية أو المنطق الضمني الذي أنبنى عليه التقسيم الفضائي بين الجنسين في العائلة التقليدية الجزائرية؟.

أولا: مفهوم المسكن العائلي.

يحمل مصطلح المسكن لغويا في ثناياه العديد من المعاني، فهو القرار والثبات، نقيض الحركة والاضطراب، وهو فعل الإقامة والاستقرار1، وهو المكان الذي يوفر السكينة والسلام لقاطنيه. كما تقترن كلمة سكن في القواميس مع العديد من العبارات مثل: الدار، البيت، المنزل، والمسكن، وكلها تحمل معنى الإقامة في المكان، غير أن معظم القواميس تفتقر إلى الشرح الدقيق لهذه العبارات، مكتفية بالمعنى العام للفظ. من جهة أخرى تشير كلمة سكن (Habitat) باللاتينية (Habitatum) إلى المكان المنظم الذي يسمح للفرد بتحقيق حاجاته الفزيولوجية، الروحية والعاطفية، وحسب الموسوعة العالمية فالمسكن هو البناء الذي يوفر المأوى والأمان والحماية[2].

أما المعنى الأساسي للمسكن العائلي التقليدي في المخيال الجمعي هو ببساطة خيمة أو كوخ أو بيت أو منزل أو دار، وهي كلمات مرادفة تشير إلى كل مكان صالح للسكن والإقامة فيه. إلا أن كلمة "دار" هي الأكثر استعمالا للدلالة على المسكن، والتي تعني فعل دار وأحاط أو تحرك في شكل دائري، مما يحيل إلى المسكن في المخيال الاجتماعي كفضاء يحيط العائلة وتتحرك فيه. وهو ما تعبر عنه ألفاظ "دار العيلة" أو"الدار الكبيرة"، تعبيرا عن لحمة العائلة، كما يمكن أن تصبح كلمة "الدار" علامة من علامات الأصل أو التمييز الاجتماعي كأن يقال: "ولد دار" أو "من دار كبيرة".أو ولد خيمة كبيرة

كما اقترنت الدار بالمرأة في المتخيل الجمعي ووحد بينهما ليشكل منهما فضاء رمزيا واحدا، فأضحت "الدار" في المخيلة الشفوية تتغيب، تمرض، تغضب وتسافر، وتحولت الدار إلى جسد يحس الرجل بنبضاته: "الدار مريضة"، "الدار غاضبة"، "الدار مسافرة"، فلقد حركتها المخيلة الشعبية وأخرجتها من طابعها الأصلي محررة إياها من تلك الوظيفة الاجتماعية التي تأسست من أجلها أصلا، لتبعث فيها الروح و تدخلها ضمن إطار جديد قريب الصلة من الإطار الإنساني[3].

بالإضافة إلى ذلك يمكن أن تشير الدار في المخيال الجمعي إلى أبعاد مكانية وزمانية ترتبط بالميلاد والموت، فالدار تشير إلى الحياة والولادة، فمن الشائع أن يقال: "يعمر دارك"، إن تعمير البيت يكون شبيها بامتلاء المرأة عند الحمل، وامتلاء الحقول، وامتلاء القرية. كما تشير الدار إلى الموت والفناء، "الدار قبر الحياة"، فكلاهما البيت والقبر مستقرّ وعود بعد هجرة و تغرّب: القبر رجوع إلى أحشاء الأرض، والمنزل نزول وعود إلى نقطة الثبات في رحلة التقلّب والاضطراب داخل الحياة[4]. لقد أحكم المجتمع شحن كلمة "دار" بدلالات ثقافية واجتماعية ذات محتويات قيمية، مما يعكس صلة أنثروبولوجية عميقة بين المسكن وساكنيه.

ثانيا: انثروبولوجيا المسكن.

يعد المسكن رمزاً تلخيصيا للكون الذي يعيش فيه الإنسان، فهو نقطة ارتكاز وعلامة مرجعية تثبّت وجود الإنسان في هذا العالم، وترسم له حدوده داخل فضاء كوني لا متناه ملغّز، كما أن المسكن بتعبير غاستون باشلار Bachelard.G هو زاويتنا وركننا من العالم وهو عالمنا الأول وفضائنا، وهو لغة الحياة اليومية وأدوات حياتنا النفسية الخفية التي بدونها يفقد نموذج الألفة في الحياة، فالبيت جسد وروح وهو عالم الإنسان الأول[5]. ولا يوجد سوى اختلاف بسيط بين المغارة والمسكن الحميمي، حسب باشلار لأن هذا الأخير ما هو في الغالب إلا كهفا تغير موضعه.

كما عد المسكن حلقة وصل بين الفرد والجماعة طالما أنّ الاستقلال بالسكن يرتبط، إلى حدّ بعيد، بمؤسّسة الزواج بما تعنيه من الانتماء والضبط والالتزام، فعادة ما يقال:"قرييش دير الدار". وبذلك يتماثل بناء بيت جديد مع زواج جديد، فكل مبنى وكل تدشين لمسكن جديد سواء كان خيمة أو كوخ أو بيت أو دار، يساوي بنوع ما "بدء جديد"، "حياة جديدة" وكل بدء إنما يكرر البدء الأولي[6]، وكل بناء جديد هو إعادة خلق العالم[7]، وكل زواج جديد هو استمرار للمقدس والأصل، واستعادة للزوج الأول[8] الذي منه انحدرت الخليقة.

وعادة ما يدشّن بناء المسكن الجديد بمجموعة طقوس يعقدها الإنسان مع كائنات غير مرئية من أجل مبادلة تعويضية واسترضائية"[9]. ولما كان "الفضاء غير متجانس، فيه انقطاعات وفجوات[10] ومؤسس من مكونات مرئية وغير مرئية، تتطلب الإقامة في ارض وتشييد مسكن فيها قرار حيويا بالنسبة للجماعة كما بالنسبة للفرد [11]، وبذلك كان من المهمّ التحرّي في اختيار المكان، ولم يعد بناء المسكن مجرّد شأن إنسانيّ

يرتهن إلى إرادة الفاعلين من بني البشر وحدهم، وإنّما يعني أيضا عالما لا مرئيا كاملا من الأرواح.[12] عالم الملائكة وقوى الخير والأرواح الطيبة وعالم الجن وقوى الشر والأرواح الخبيثة، واقتحام مجال هذه الأخيرة يمكن أن يكون مصدر خراب وشقاء للمسكن وساكنيه.

وإذا كانت الأضحية طقس ذكوري، تشارك فيه الجماعة في إطار نظام "التويزة" حيث تكون هذه المناسبة مجالا لبروز التضامنات لا سيما في المراحل الحاسمة من عملية البناء، فان دفن شيء من فضة "حلي المرأة" في أساسات المسكن هو طقس أنثوي، فالأمر متعلق بمستقبل المسكن وساكنيه وهو ما عبر عنه المثل الشعبي "المرأة هي الساس والراجل هو القنطاس". فالمرأة هي الأساس وقاعدة المسكن والرجل هو السقف الذي يحميه، هذه القاعدة التي تجد دلالاتها الرمزية في الثنائية الانثروبولوجية المرأة/الأرض والرجل/السماء.

لا تنتهي الطقوس بمجرّد تدشين المسكن والاستقرار به، بل إنّها تستمرّ وتتكثّف في واجهة المسكن بوصفه الجزء الأكثر كثافة في التعبير عن المسكن، من أجل الحماية ضد العالم الخارجي، فإذا كان المدخل من الباب والجدران المرتفعة والنوافذ الحديدية هي الدرع المادي الواقي ضد العالم الخارجي فإن العتبة يمكن أن تنوب عن المنزل كلّه، إذ من الشائع أن يقال مثلا: "عتبة حرشة"، تعبيرا عن المسكن "المسكون" بالأرواح أو تعبيرا عن النحس. فالعتبة في المخيال الجمعي مكان غامض باعتبارها الحدّ الواصل والعازل، ومكان للعبور من خلاله تتوحد الأضداد والثنائيات، طهر/نجاسة، مقدس/مدنس، ملاك/شيطان. كما أن للعتبة حراسها من الإلهة والأرواح التي تدافع عن المدخل من كل سوء نية الأشخاص وكذلك القوى الشيطانية والوبائية[13]. وبذلك تحضر العديد من الرموز المادية المعلقة على واجهة المدخل من قرون الحيوانات (الغزال الكبش أو الثور) أو حدوة الحصان أو العين أو "الخمسة" وهي الأكثر انتشارا على شكل حلقة حديدية أو ترسم باستخدام مادّة الحنّاء أو دم أضحية أو قربان.

تحضر هذه الرموز للإحالة على فكرة التطير والخوف من الشر، كأدوات وقاية وحماية من اللامرئي والمرئي. لتتوحد هذه الحماية الرمزية مع الباب والنوافذ الحديدية والأسوار العالية التي تحفها زجاجات مكسرة، وكل الدفاعات الطبيعية، في القرى من الخنادق إلى الشوك الهندي الذي يحيط الخيم، إلى قطعان من الكلاب المتوحشة، على حد وصف جرمين تيليون German talion ، هذه الدروع الخارجية الذكورية التي تحفظ العالم الداخلي الأنثوي كفضاء له خصوصيته، فضاء مستور محمي له حرمته وقدسيته.

ثالثا: المسكن و"حرمة" الفضاء في العائلة التقليدية.

يمثل المسكن أو الدار أو البيت في العائلة التقليدية، فضاء الحرية الوحيد للكائن الأنثوي، الذي يمكن أن تعيش فيه المرأة حميميتها وعلاقتها الشخصية بجسدها والأفق الوحيد الذي تستطيع فيه أن تحصل فيه على استقلاليتها وفرديتها، فالبيت هو مكان النساء، على عكس الرجل الذي يغادر البيت قبل بزوغ النهار، ليقضي معظم وقته خارجه ويكون "راجل مع الرجالة"، ولا يعود إلى البيت إلا للضرورة من أكل ونوم، والرجل الذي يطيل الجلوس في البيت أو يبقى متقوقعا في وسطه ينظر إليه نظرة احتقارية قد تنقص من رجولته. فعالم الرجال مفتوح مرتبط بالعمل والكسب في الخارج/السوق، الحقل، والمصنع، وهو ما عبر عنه المثل الشعبي"خدام الرجال سيدهم"، و"الراجل عيبو جيبو". وبذلك أصبح المنزل عالم النساء وحياتهن الداخلية، وتحصل بالتالي على لقب "مولات الدار"أو "مولات بيتي" تعبيرا عن أن الدار في المخيال الجمعي هي "مملكة المرأة" .

لقد سعى الرجل إلى حماية فضاء الدار – المرأة، خطابا وممارسة حتى أصبح البوح بها وباسمها عارا وممنوعا بالنسبة للرجل، ولا يحتمل الرجل أن يثار اسم أخته أمام الرجال أو زوجته، على اعتبار أن هذا يمس خصوصياته ويمس شرفه،كما تحولت الدار إلى جسد يحس الرجل بنبضاته: الدار مريضة، الدار غاضبة، الدار مسافرة. فالدار، امتداد وحضور للمرأة في مخيلة الرجل خارج الفضاء العائلي وأمام الآخر أي الأجنبي عن العائلة[14]. وعادة ما يضيف الرجل كلمة "حاشاك" بعد لفظ كلمة "أختي" أو "زوجتي" والتي تحمل معنى الدونية والارتباط بالنجاسة، إلا أن المنطق الضمني للفظ كلمة "حاشاك" يمكن أن نقرأ فيه معنى الغيرة والحماية لدى الرجل الذي يحاول أن يشتت انتباه الطرف الآخر بهذه الكلمة ويمنعه من تجسيد صورة ذهنية جنسية لأخته أو زوجته.

لقد فرضت خصوصية المسكن كفضاء عائلي داخلي له حرمته، فضاء مستور، ومحمي مقدس بعيد عن الاختراق وبعيد عن كل الأنظار من حيث عدم إمكانية انفتاحه على الخارج. مجموعة رموز وطقوس لدخول الدار أو الاقتراب منها كالكلام بصوت مرتفع للإعلان عن القدوم، فمن الشائع أن يقال: "خلف الطريق" أي إفساح المجال للضيف، أو السعال، وقد يلجأ الزائر إلى الضرب على الباب مع الانسحاب قليلا والنظر بعيدا أو إرسال طفل صغير. ولا يتسنّى بلوغ عمق الدّار بمجرّد انفتاح الباب وعبور العتبة، إلا بعد جهد جسدي ونفسي يعطي معنى مقدّسا للستر الّذي سيهتك، بحيث يتطابق

دخول الدار مع دخول أي معبد أو مزار مقدس طالما أنّ مفهوم الحرام حاضر في الحالتين حضورا يدعو إلى التعامل طقوسيا معهما بمشاعر الخشية والاحترام[15]، تعبيرا عن حرمة الدار وخصوصية الفضاء.

اعتبرت جرمين تيليون الحرمة كنوع من "التقديس الوحشي للفضاء"، الذي تختلط فيه الحصانة مع الشرف[16] وعزت تيليون هذه المبالغة في حماية الفضاء إلى تطور لسلوك قديم ورث عن حياة البداوة، إذ أن البدوي الذي أصبح محروما من الحماية والدعم اللامشروط للإخوة وأبناء العمومة قد عوض ذلك بسلسلة من أنواع الحماية التي أتاحتها له إمكانياته وخياله وهي القضبان الحديدية على النوافذ، والأقفال المعقدة، والكلاب المتوحشة والمخصيين والحجاب.

كما يرى بيار بورديو Pierre Bourdieu أن سلطة الرجال وشرفهم هما اللذان يقتضيان أن تعمل النساء في المنزل، وهذا ما يجد تبريره في كونهن ضعيفات غير قادرات على التصدي للأعداء[17]، إن قيمة الشرف حسب بورديو جزء من رأس المال الرمزي الذي بموجبه يكون الشخص موضع احترام وتقدير وتقييم من جانب الجماعة. ويتطلب تراكم هذا الشكل من رأس المال الرمزي: الشرف والهيبة والسمعة الطيبة والسيرة الحسنة، جهدا متواصلا من طرف الرجل من اجل الحفاظ عليه ولا يتأتى ذلك إلا بالسيطرة على مجموعة النساء اللائي أوكلن له بحكم التصرف، فشرف المرأة رمزا لشرف الرجل وفقدان الشرف يولد العار.

وبذلك ارتبطت قيمة شرف الأنثى وأختزلت في فكرة الشرف العذري "البكارة" أو "العذرية"، وهي شرط مهم في المجتمعات العربية و الإسلامية، حسب مالك شبل" لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم والذي تتحقق من خلاله هوية الزوجة المغاربية[18]. وبذلك يسهر كلا الجنسين في العائلة على احترام التقاليد، ويسهر الرجال على احترام الحشمة الجنسية للنساء من اجل أن لا تفسد طهارة نسبهم.

رابعا: التقسيم الفضائي والفصل بين الجنسين في المجتمع التقليدي الجزائري

شكل التقسيم الفضائي والفصل بين الجنسين في المجتمع التقليدي الجزائري صيغة للعلاقات الاجتماعية التي لها جذورها التاريخية العميقة، حيث منع العرف الاجتماعي البربري اختلاط الرجال بالنساء، وعدم ذهاب المرأة للتسوق، وحجب الصبية وعدم خروجها من منزلها، وظهورها أمام الأغراب مع بداية ظهور علامات الأنوثة، ولم يرى المجتمع مانعا من منح المرأة المتقدمة في السن حرية كبيرة بل

يمكنها ممارسة التجارة[19]. وهو ما يتطابق مع المجتمع العربي قبل الإسلام حيث كان الفصل العتيق بين فضائين فضاء خاص تلزمه المرأة، وتنعزل فيه، وفضاء عام يتحرك فيه الرجل، لكي يقوم فيه كل من منهما بادوار خاصة[20].

يمكن اعتبار هذا الفصل العتيق بين الجنسين كامتداد لثنائية تحصيل الغذاء/انجاز الغذاء، فعملية كسب العيش وتامين مستلزمات الطعام هي مهمة ذكورية والقيام بالإطعام مهمة أنثوية، هذه الثنائية التي ارتبطت في اللاوعي الجماعي ومنذ زمن طويل بمجتمع القطف والصيد، فالرجل ملزم بتحصيل الغذاء والمرأة ملزمة بعملية الإطعام، وهي صورة عاكسة لتمثل التقسيم العام للكون. وبقيت رمزية الأم المطعمة المرتبطة بالمرأة، وكاسب الرزق المرتبط بالرجل مؤثرة في المخيال البشري.

وإذا كان الفصل بين الجنسين والحد من حرية المرأة ممارسة واسعة الانتشار قبل مجيء الإسلام، فإن التقسيم الفضائي بين الجنسين في المجتمعات الإسلامية أنبنى على مجموعة من الأسس، التي وجدت التأويلات الدينية لها تبريرا في النص القرآني، ولعل أول هذه الأسس هو تلك الصورة الشبقية للمرأة في المخيال العربي، فهي تحتاج إلى مراقبة دائمة لان المفروض فيها أبويا أنها غير قابلة للإشباع[21]، فالمرأة كيان يلزم حجب طابعه الشهواني المحرك للغرائز، والباعث على الفتنة وأحبولة الشيطان. إن هذا التصور الرجالي يبرر ضرورة حجب المرأة لتجنب الفتنة. واحتواء سلطة "كيد المرأة" هذه السلطة الهدامة والكاسحة التي تشكل أكثر العناصر تهديما للنظام الاجتماعي الإسلامي[22]. فالمجتمع لم يحد من حرية المرأة إلا باعتبارها جسدا مثيرا للشهوة والفتنة[23]. أي افتقاد النظام والفوضى، وهو ما من شأنه خلخلة الفضاء الذكوري العام.

إن موقف الدين بوصفه وحيا منزلا وبوصفه دين الفطرة يعطي المرأة حقها الطبيعي، ولكن الثقافة بوصفها صناعة بشرية ذكورية خاضعة للمنطق الأبوي تبخس المرأة حقها وتحط من شأنها وتحيلها إلى كائن ثقافي مستلب[24]، من خلال تأويلات دينية اعتبرت النساء جنس ناقص دين وعقل وضعيف وغير طاهر وشيطاني، وبذلك أصبحت وضعية النساء في المجتمع بما تحمله من دونية اجتماعيا ورمزيا تجد تبريرها وتزكيتها في النص الديني[25]. كما انبنت على أساس الاعتبارات الجسدية والمعطيات الفزيولوجية للمرأة: الحيض، وانقطاع الحيض، الحمل، الوحم، الولادة، النفاس، والإرضاع، مجموعة من الاعتبارات الأخرى ذات طبيعة ثقافية واجتماعية الإنفاق والقوامة والحماية.

إن هذا الوضع البيولوجي والفزيولوجي للجسد الأنثوي، الذي ساهمت الثقافة في رسم معالمه وتكريسه وإضفاء الشرعية الدينية عليه، لن يصبح ذا قيمة ايجابية رمزية إلا حين يؤدي وظيفته الطبيعية والثقافية المتمثلة في الإنجاب، ففي هذه الحالة يصبح موضع تقديس لأنه يرتبط بدور الأمومة والخصوبة ومنح الحياة، وبذلك تم إيجاد تعريف ضمني للمرأة وهو الزوجة والأم. فالمرأة المثالية في المخيال الجمعي هي التي تنحصر في إرضاء شهوة زوجها وفي إنجاب عدد كبير من الأطفال الذكور. فالأطروحة الأبوية تجعل من المرأة كائنا خلق من الرجل ومن أجل الرجل، إي من اجل إشباع جنسانيته[26]. وإستبعاد أي ميدان أخر لنشاطها الحياتي، فأعمال المرأة أغلبها مركزة أكثر في الداخل الضيق مهما أتسعت مساحته فهو يحتويها ويفصلها عن الخارج بسبب جسدها الباعث على الإغراء، عكس الذكر الذي يتمتع بالحرية والتحرك. فهي واحد من اثنين: إما أُماً ولوداً و زوجة مطيعة لا تخرج من دارها ولا تُقصر في خدمة زوجها ورعاية أطفالها، وإما جسداً أنثوياً وأداة للغواية والإغراء، وهو ما يبرر جعلها تحت وصاية الرجل.

انعكست التأويلات الدينية على التمثلات حول المرأة اجتماعيا وثقافيا الذي يجعلها في مرتبة دنيا سواء وسط النخبة العالمة أو لدى العامة، حيث تمسك الرجال بالشرعية الدينية الممنوحة لسلطة الذكور واعتبروها أفضلية طبيعية ويبررونها من خلال تأويلات دينية نزعت عنها مواصفاتها الإنسانية إلى درجة أصبحت تعود فيها الأفضلية للرجل على المرأة ويصبح معها تأويل النص الديني مكرسا للسيطرة الذكورية الأبوية. من خلال توظيف آيات قرآنية وأحاديث نبوية عمدا، في غير صالح النساء، وقد يصل الأمر إلى اقتطاعها من سياقها العام، كما هو الشأن بالنسبة للآيات الكريمة: "إن كيدهن لعظيم" "وللرجال عليهن درجة". أو الأحاديث النبوية "ما تركت فتنة اضر على الرجال من النساء"، "لو كنت امرأ أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، لما عظم الله من حقه عليها" وأحاديث أخرى منسوبة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) تجعل الرجل معبود زوجته وجنة المرأة ونارها، وأنها أن أعرضت عنه فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح.

من جهة أخرى ساهمت الثقافة الشعبية بمختلف أشكالها التعبيرية وخاصة منها الأمثال الشعبية باعتبارها خطاب ذكوري بامتياز في تجسيد الصورة النمطية للمرأة من خلال مجموعة من الثنائيات، الخير/الشر، المرأة/الشيطان، الخطأ/الخطيئة، العقل/العاطفة، الطهارة/النجاسة، ليجعل هذا الخطاب من الكيد والغواية والإثارة والشهوة والشر والخطيئة والنجاسة صفات ملازمة للمرأة.

"المرا تخلقت من ضلع أعوج"، "سباب كل بلية ولية"، "المرا لفعة ومتحزمة بإبليس". ،"كيد النسا كيدين ومن كيدهم يا حزوني راكبة على ظهر السبع وتقول الجديان ياكلوني"،"النسا زريعة إبليس"، "إذا حلفو فيك الرجال بات راقد، وإذا حلفو فيك النسا بات قاعد"، "لي يعملوا إبليس في عام تعملوا العجوزة في ساعة"، "شافت الضيف طلقت راجلها"، "يزوج العسكري يفرح جارو"،"ضرستك إذا وجعاتك نحيها بكلاب حديد، وبنتك إذا كبرت اعطيها راهو بلاها في الدار ديما يزيد"، "رد بالك المرا دخلت الشيطان في قرعة"، "معرفة الرجال كنوز ومعرفة النساء نجاسة".

هذه النماذج لبعض الأمثلة الشعبية المتجذرة في الثقافة والتمثلات الذهنية والرمزية للذاكرة الجماعية بما في ذلك الحكايات والنكت والأحاجي التي تجسد نظرت المجتمع إلى المرأة، كجنس ناقص عقل ودين وضعيف وشهواني وغير طاهر وشيطان، وهي دلالات ومعاني تشير إلى بقايا المعتقدات الأسطورية القديمة في اللاشعور الجمعي، التي تمتح من الصيغة التوراتية صورة الخطيئة الأولى التي ارتبطت بالمرأة، فكان عقابها الإلهي نقصان العقل وسيطرة السفاهة على تفكيرها وسلوكها وألام الولادة والحيض "اللعنة الأبدية" التي ستظل تحملها كل أنثى وتنقلها من امرأة إلى أخرى.

رغم أن القرآن وضع ادم/حواء، الرجل/المرأة، معا على قدم المساواة في اقتراف الخطيئة، "فأزلهما الشيطان"، إلا أن صورة الخطيئة/المرأة، تسربت في كتب التفاسير، واستقرت في المخيلة الشعبية [27] ولا تزال تفعل فعلها في الثقافة الشعبية بشكل خاص، لتعكس واقع الهيمنة/المقاومة، وهي وضعية يصطدم فيها "الاحتقار الرجالي" بـ"الكيد النسائي" كحذر متبادل بين الطرفين، لتشكل هذه الثنائية قطبا تتمحور حوله العلاقات داخل العائلة.

خامسا: التقسيم الفضائي والفصل بين الجنسين كتصور ثقافي عالمي.

لقد افترض الرواد الأوائل، مؤسسوا العلوم الاجتماعية أن العالم الاجتماعي مبني أساساً على الفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة، باعتبار أن الحياة العامة للرجال متمثلة في القوة العاملة، والحياة المدنية والسياسية. والحياة الخاصة للنساء باعتبارهن موجهات في الأساس نحو المجال المنزلي الأسري. وقد أدى هذا الفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة، إلى إيجاد تعريف ضمني للمرأة وهو الزوجة والأم، واستبعاد أي ميدان أخر لنشاطها الحياتي.

ارتكزت أفكار الرواد الأوائل في التقسيم الفضائي والفصل بين الجنسين على أساس فكرة "تقسيم العمل" القائم على الاختلاف بين الجنسين. فالنساء بالنسبة إلى أوغست كونت Auguste Comte عليهن مسؤولية الأخلاقيات المنزلية[28]، والدور الوحيد لهذا الكائن العاطفي المنفعل حسب رأيه، هو دور الزوجة وربة البيت.[29] أما هربرت سبنسر Herbert Spencer فقد أعلن أنه إذا فهمت المرأة كل ما يحتويه العالم المنزلي لما رضيت عنه بديلاً. أما المنظور الذي كان ينظر به إيميل دوركايمÉmile Durkheim إلى المرأة فقد حدده المذهب البيولوجي من خلال كتابه تقسيم العمل الاجتماعي، فهو يرى أن المرأة تنتمي بطبيعتها إلى الأسرة، التي هي مملكة المرأة كونها مركز التربية الأخلاقية والأمان العاطفي[30]. كما أوضح تالكوت بارسونز Talcott Parsons نظام تقسيم العمل في الأسرة ودور كل من الرجل والمرأة فيه، فهو يرى أن المرأة تقوم بإنجاز الوظائف الأسرية الداخلية مثل تربية الأبناء وإنماء نوازع المحبة و التعاطف عندهم.[31] وبذلك كانت نظرة المنظرين الأوائل وظيفية محضة من خلال الفصل بين المجال العام والخاص.

كانت تفسيرات تقسيم الفضاء بين الجنسين إلى مجال عام للرجال ومجال خاص للنساء من خلال فكرة تقسيم العمل، تندرج ضمن المنطق الأخلاقي والطبيعي للاختلافات بين الجنسين، فالمجتمع يتوقع من المرأة على عكس الرجل القيام بمجموعة من الأعمال تجاه أفراد أسرتها كي يقوموا بدورهم في المجتمع. ويعكس هذا الدور الذي تقوم به المرأة مدى تقدير المجتمع لما أصطلح عليه "بربة البيت"، وهو ما يعبر عنه بطريقة صريحة أحياناً وضمنية في الأحيان الأخرى نتيجة لإحساس المجتمع بمدى أهمية دورها الحيوي للعائلة وداخل المنزل[32]. وبذلك عد عمل المرأة داخل المنزل وعمل الرجل خارجه ضرورة اجتماعية تخدم وظائف المجتمع.

من جهة أخرى يضرب منطق التقسيم الفضائي والفصل بين الجنسين بجذوره في الحتمية البيولوجية، التي ترى أن المكان المناسب للأنثى هو البيت[33]، فالذكر بحتميته التشريحية موجه نحو الفعل، والتحطيم، والخارج، عكس الأنثى التي هي جهة العتمة، وجهة حفظ الحياة، وجهة العمل الذي لا يُرى[34]. بتعبير آخر الجسد الذكوري بحكم قوته، يحتاج إلى التواجد في مكان لتحقيق الفعل والتحطيم المتمثل في الخارج، أما الجسد الأنثوي و بحكم ضعفه، فهو لا يحتاج إلى التواجد بالخارج، مكانه هو الداخل والضيق، المتوفر في البيت. جنس خشن/ جنس لطيف

وبما أن الرجل من الناحية البيولوجية ذكر، يستلزم أن يكون أبا على الصعيد العائلي، ورجلا على الصعيد الاجتماعي له قيمته ومكانته، ومُعيلا على الصعيد الاقتصادي، ملكا أو رئيسا على الصعيد السياسي وهكذا، أما المرأة هي أنثى تخصب لتحمل وتلد على الصعيد البيولوجي، أُم تربي الأطفال، وزوجة تعتني بزوجها، مربية بيت تدير شؤون الأسرة على الصعيد العائلي، وامرأة ترعي استمرارية القيم والتقاليد[35]. هذا الدور الذي وضع النساء في قالب نمطي بإعتبارهن قاصرات تماماً عن إمتلاك تلك الصفات التي تعتبر ضرورية للمشاركة النشطة في المجتمع، وتبصمها بصفات محددة: الحنان، والحضانة، والإحتواء، والرقة، والرأفة، والتضحية من أجل الآخرين، والتقوقع في الدور الأمومي والاتجاه دوماً إلى الداخل، بينما تتجه سمات الذكورة إلى الخارج، فالذكر يتحدى، ويعمل، ويواجه، ويكون مسؤولاً عن الإنفاق والقوامة والحماية .

ترى "شيري أورتنر" Sherri Ortner [36] انه في جميع الثقافات يتم تعريف النساء بالطبيعة أو ربطهن رمزيا معها، مقارنة بالرجال، الذين يعرفون بالثقافة، وحيث أن الفكرة التي تقدمها الثقافة هي احتواء الطبيعة والتفوق عليها، الثقافة هي إضافة للطبيعة أو مواجهة لها عندئذ ستجد الثقافة أنها من الطبيعي إخضاع النساء، باعتبار أن النساء يتجذرن أكثر في الطبيعة ولديهن صله مباشرة معها. فالجسد ووظائفه "المهام الإنجابية الطبيعية الخاصة" للنساء وحدهن يضعها اقرب إلى الطبيعة مقارنة بفسيولوجية الرجل التي تحرره تماما لينشغل في مهام الثقافة.

هذه الوظائف الفزيولوجية للمرأة التي تعطيها بدورها بنية نفسية مختلفة، نزعت إلى الحد من حركتها الاجتماعية. والى حصرها في محيط العائلة المنزلي، كممثلها الأساسي والمكلفة بالوظيفة الهامة أي تحويل الطبيعة إلى ثقافة، بالإشارة إلى التنشئة الاجتماعية للأطفال. وبما إن استمرار قابلية البقاء لأي ثقافة تعتمد على أفراد منشئين اجتماعيا بشكل لائق سيرون العالم بتلك الثقافة، وسيتمسكون بشكل مطلق بمبادئها الأخلاقية، ينبغي التحكم بدقة بوظائف الوحدة المنزلية وبتالي المرأة، لضمان هذه النتيجة. وبذلك ترى شيري اورتنر أن المنطق الضمني الذي يفترض دونية المرأة، وحصر وتقيد وظائفها داخل المنزل، هو ربطها بالطبيعة طالما أن الثقافة يجب أن تحافظ على السيطرة على آلياتها لإعادة إنتاج وضعها، من خلال تحويل الطبيعة إلى ثقافة، ولن يتأتى ذلك إلا بحصر المرأة داخل المنزل.

ISSN: 1543-2335 مجلة الفكر المتوسطي للبحوث والدراسات في حوار الديانات والحضارات
E-ISSN: 2012-3299
مجلد: 07 عدد: 02 سبتمبر 2018
العنوان: تقسيم الفضاء السكني بين الجنسين في العائلة التقليدية ص63 . ص76

خاتمة

ارتبط المسكن العائلي التقليدي في المخيال الجمعي بدلالات ثقافية واجتماعية تحيل إلى المسكن كفضاء حميمي يحيط العائلة، كما ارتبط المسكن أو الدار بالمرأة كتصور محوري في المجتمع التقليدي باعتباره فضاء مقدس وحميمي له خصوصيته، وحرمته وقدسيته، فضاء يرتبط بشرف العائلة، وبذلك سعى الرجل إلى حماية فضاء الدار – المرأة، خطابا وممارسة.

لقد أصبح المسكن يحيل إلى عالم النساء وفضاء الأنوثة وحياتهن الداخلية، وما خارجه عالم الرجال وفضاء الذكورة، هذا الفصل بين الجنسين وتقسيم الفضاء إلى مجال عام للرجل ومجال خاص للمرأة، يمكن عده امتدادا لثنائية تحصيل الغذاء/انجاز الغذاء، التي ارتبطت ومنذ زمن طويل بمجتمع القطف والصيد، وبقيت رمزية الأم المطعمة، والرجل كاسب الرزق مؤثرة في المخيال البشري. وبذلك أضحى التقسيم الفضائي والفصل بين الجنسين تصور ثقافي عالمي قابع في صلب الثنائيات التي نصنف بها العالم والتي ترسخت في المخيال البشري كآلية من آليات التفكير بطريقة لا واعية، والتي تعتبر الفوارق بين الرجال والنساء حتمية طبيعية مبنية على أساس بيولوجي، أي أن الطبيعة هي التي تُملي أدوار النساء والرجال في المجتمع وبالتالي فهي أدوار ثابتة لا تتغير، وبذلك تم افتراض دونية المرأة وربطها بالطبيعة، وحصر وتقيد وظائفها داخل المنزل.

إلا أن هذا التصور في الثقافة العربية والمجتمعات الإسلامية إستمد مشروعيته من شرعية النصوص الدينية التي تنسب إلى النبي (صلى الله عليه واله وسلم)، أو ما يفهم من بعض آيات القرآن الكريم التي يجري تأويلها على وفق هذا التصور، هذه التأويلات الدينية التي عادت فيها الأفضلية للرجل على المرأة وأصبحت مبررا للسيطرة الذكورية الأبوية التي تعتبر الفوارق بين الرجال والنساء معطى طبيعي إلاهي .

وبذلك يمكن اعتبار التقسيم الفضائي والفصل بين الجنسين في المخيال البشري، آلية ذكورية تنم عن إرادة التحكم والسيطرة على النساء، كخوف لاشعوري مسكوت عنه من جنسانية النساء أو كيدهن أو اقتسام السلطة معهن والتي طالما انفرد بها الرجل. خاصة وان العديد من الدراسات تشير إلى أن الرجال يحملون صورا تخويفية عن النساء وشرورهن وتربصهن للرجال[37]، ولعل هذا الاعتقاد يتوافق مع الاعتقاد البدائي الذي صور المرأة بأنها ذات قوة خارقة، وبذلك شكلت هذه القوة عقدة خوف بالنسبة للرجل.

الهوامش

[1] عماد صولة، "**سيرورة الرمز من العتبة إلى وسط الدار: قراءة أنثروبولوجية في السكن التقليدي التونسي**"، مجلة إنسانيات، عدد 28، 2005، ص5-22 تاريخ التصفح الساعة 15:00، يوم 2017/12/02،الرابط: insaniyat.revues.org/5227

[2]سليماني جميلة، "**طبيعة الفضاء المنزلي وعلاقته بالرضا عن الحياة وبتقدير الذات**"، تاريخ التصفح الساعة 19:00، يوم 2017/09/21، الرابط: http://platform.almanhal.com/Files/2/23386

[3]سعيدي محمد، "**الدار – المرأة" رمزية الفضاء بين المقدس والدنيوي في الثقافة الشفوية**، مجلة إنسانيات، عدد02، سنة 1999، تاريخ التصفح الساعة 13:00، يوم 2016/03/11، ، الرابط: insaniyat.revues.org/11531

[4] عماد صولة، مرجع سابق، ص5-22.

[5] غاستون باشلار، "**جمالية المكان**"، ترجمة غالب هالسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984، ص38 .

[6] مرسيا الياد، "**المقدس والمدنس**"، ترجمة عبد الهادي عباس، ط1، دار دمشق،سوريا، 1988 ، ص55.

[7] المرجع نفسه، ص45 .

[8] فريد الزاهي، "**الصورة والآخر، رهانات الجسد واللغة والاختلاف**"، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 2014، ص16 .

[9]جيلبير دوران، "**الأنثروبولوجيا رموزها، أساطيرها، أنساقها**"، ترجمة مصباح الصمد، لبنان، المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، 1991، ص 290 .

[10] مرسيا الياد، مرجع سابق، ص23 .

[11] نفسه ، ص50.

[12] عماد صولة ، مرجع سابق، ص5-22.

[13] مرسيا الياد، مرجع سابق، ص 28 .

[14]سعيدي محمد، مرجع سابق.

[15]عماد صولة ، مرجع سابق، ص5-22.

[16] جرمين تيليون، "**الحريم وأبناء العم تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط**"، ترجمة عز الدين الخطابي وادريس كثير،ط1، دارالساقي،2000 ، ص141.

[17]بيار بورديو، "**الهيمنة الذكورية**"، ترجمة سليمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 150.

[18] مالك شبل، "**الجنس والحريم وروح السراري**"، ترجمة عبد الله زازو، إفريقيا الشرق، 2010، ص10.

[19] العربي عقون، "**الاقتصاد والمجتمع**"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص174.

[20] رجاء بن سلامة، "**بنيان الفحولة أبحاث في المذكر والمؤنث**"،ط1، دار بترا للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، 2005، ص60-65 .

[21] عبد الصمد الديالمي، "**سوسيولوجيا الجنسانية العربية**"، ط1، دار الطليعة ، بيروت، لبنان، 2009، ص21.

[22] فاطمة المرنيسي، "**ما وراء الحجاب،الجنس كهندسة اجتماعية**"، ط4، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2005، ص15 .

[23] فريد الزاهي، مرجع سابق، ص16 .

[24] عبد الله الغذامي،"**المراة واللغة**"، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2006، ص17.

[25] رحال بوبريك، "**بركة النساء الدين بصيغة المؤنث**"، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص13.

[26] عبد الصمد الديالمي، مرجع سابق، ص20.

[27] نصر حامد أبو زيد، "**دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة**"، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2004، ص48 .

[28] سامية الساعاتي، "**علم اجتماع المرأة**"، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر،2003، ص36.

[29] - دي بوفوار سيمون، "**الجنس الأخر**"، ترجمة لجنة من الأساتذة، المكتبة الأهلية، بيروت، 1966، ص59.

[30] سامية الساعاتي، مرجع سابق، ص37 .

[31] علياء شكرى، "**المرأة والمجتمع وجهة نظر علم الاجتماع**"، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998، ص9 .

[32] المرجع نفسه، ص172 .

[33] فاطمة المرنيسي ، مرجع سابق، ص22-23 .

[34] أني أنزيو، "**المرأة الأنثى بعيدا عن صفاتها**"، ترجمة طلال حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، لبنان،1992، ص18 .

[35] "**النوع الاجتماعي**"، وحدة مرجعية خاصة بالدول العربية، ط1، أفريل، 2003، ص3.

[36] "**النظرية النسوية مقتطفات مختارة**"، ترجمة عماد إبراهيم، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2010، ص193-212 .

[37] عبد الله الغذامي، "**المرأة واللغة – 2– ثقافة الوهم مقاربات حول المرأة والجسد واللغة**"، ط1، المركز الثقافي، بيروت، لبنان، 1998، ص 90-95.